

الفصل الرابع

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وإزالة دولة الطوائف

راينا في الفصل المتقدم ان الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف ابن تاشفين وشاركوا في معركة الزلاقة ، ومذكرات هذا الأمير الأندلسي على درجة عالية من الأهمية ، حيث أن موادها وثائقية ، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجواز الأول ليوسف ابن تاشفين قال : « وأخذ أمير المسلمين في الانصراف الى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهها لبقائنا في الجزيرة » (١)

ونظرا لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم اياه نصر الزلاقة ما لبث الفونزسو السادس أن سعى الى لم شعته وتدارك بعض ما خسره ومتابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو آخر ، واستغل قيام صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وآخر تغلب عليها اسمه ابن رشيق ، وفي الوقت نفسه نشطت بعض العصابات الاسبانية في منطقة مرسية وأعمال لورقة وبسطه ، وهي الكورة التي عرفها المسلمون باسم تدمير ، وقام على مقربة من لورقة « حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو » (٢) واسمه لبيط ، شحنه الفونزسو السادس بأعداد وافرة من العساكر وأمرهم بالاغارة على الأراضي الاسلامية ، وهكذا كانت سراياه تغير شرقا وغربا ، ان كان في موسطة بلاد المسلمين (٣)

وخلال عامين انقضيا بعد معركة الزلاقة تردت الأوضاع كثيرا وشرعت الوفود الأندلسية بالتوجه الى مدينة مراكش والالتقاء بيوسف بن تاشفين حيث شكت اليه سوء الأحوال الأمنية في الأندلس ، « فلم يزل وجوه الأندلس من تلك البلاد ، يتربدون اليه

بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا «(٤) أبرمت الاتفاقات مع ملوك الطوائف .

وكنا قد رأينا أن المعتمد بن عباد قد تصدر يوم الزلافة ملوك الطوائف ، وأدراكا من الفونسو لهذا الحال « عمد إلى حصن لييط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالذيل والرجال والرماة ، وأمرهم أن يدخلوا من حصن لييط المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس ... فكانوا يدخلون منه خيلا ورجالا فيقتلون ويأسرون في كل يوم ، جعلوا ذلك وظيفة عليهم ، فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعا «(٥) .

ومن المقدر أن ابن عباد عرف بتفاصيل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشفين ، وأن يوسف أبدى استعدادا للجواز إلى الأندلس شريطة عقد اتفاق رسمي حول هذا الموضوع ، ونظرا لتبدل الأوضاع بعد الزلافة ولأن يوسف بن تاشفين لم يعد الآن «الصحراوي ملك العدو» بل أمير المسلمين والسيد القوي ، لم يقدم ابن عباد على مراسلته واستدعائه ، بل توجه إليه شخصيا فغادر اشبيلية على رأس وفد كبير وجاز البحر والتقى بيوسف ابن تاشفين على مقربة من تطوان وليس في مدينة مراكش ، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف إلى هذه المنطقة ، وروى صاحب الحل الموشية أن يوسف بن تاشفين «قابلته بالسلام والترحيب بوجه طلق وصدر رحب وأكرام جم ، وقال له : ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا ، وهلا كتبت بحاجتك فقال له : جنتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الحظ الأوفر وقد اشتد ضرر النصارى المستولين على حصن لييط ، وعظم أذاه بالمسلمين ، لتوسطه في بلادهم ، ولأجهاد أعظم منه أجرا ، ولا أثقل منه وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ، ووعده بالحركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه ، وصدر إلى حضرة اشبيلية ، وتقدم إلى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد ، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات «(٦)

في رواية صاحب الحلل هذه مسحة دعائية واضحة ، وأكثر واقعية منها ما حكاه الأمير عبد الله في مذكراته حيث قال : «وإن المعتمد بن عباد لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراد أن يضع ابنه الراضي بمرسية عوضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريد الطمأنينة ويحكم معه ما شاء من عمل في مرسية وغيرها ، وعظم له شأن لبيط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لراحة للمسلمين إلا بفقده ، وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله لكي يتهيا سلاطين الأندلس حربه بعددهم واجماعهم فيأمنوا من يقلعهم عنه» (٧) .

«وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد ... فركب البحر من قصر المجاز إلى الجزيرة الخضراء ، فتلقيه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء ، كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ، وقال لهم : الموعد بيننا حصن لبيط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (حزيران ١٠٨٨ م) فنزل على حصن لبيط» (٨) .

وتجمعت القوات المرابطية والأندلسية أمام حصن لبيط «وكان بداخله من الروم ألف فارس ، واثنان عشر ألف راجل واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلاً ونهاراً مدة أشهر ، وكل أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله .

واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما يسهم عنه ... وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاوله ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية التأثير بها على المعتمد بن عباد ، فشكوا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاعه عليه ، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أذفدش ، فحضر

ابن رشديق ، واستفتى يوسف بن تاشفين في أمرهما الفقهاء فوجب الحكم على ابن رشديق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه وإسلامه في يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فتوقفه ابن عباد فهرب للحين أصحاب ابن رشديق وقرابته وجميع محلاته إلى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاخذلت أمورها ووقع الغلاء بها ، وارتفع السعر فيها ، فضاقت بالناس الأحوال .

وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الدشد ويمم الحصن في أمم لاتحصى ، فاقتضى رأي يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته ... وظهر له أن الأذفدش إذا وصل فغايته تخليص قومه وإخلاء الحصن وبزول ضرره ، ورأى أن الصواب إخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جيعا لا يقدرّون على إمساك الحصن فأحرقه وأخرج من كان فيه من قومه» (٩) .

ومثير للانتباه أخفاق هذه الحملة لحصانة لبيط ولتفجر مشكلة مرسية ، ومن أجل هاتين المسألتين جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، والمثير أكثر أن ابن تاشفين تجنب الصدام بقوات الفونسو السادس ، وفعل الشيء نفسه الفونسو وقد نعلل تصرف الفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في الزلافة ، لكن لماذا تجنب يوسف بن تاشفين الصدام معه ؟ لعل السبب قد كمن في وضع القوات الأندلسية وفي أوضاع الأندلس بشكل عام ، ووصف ذلك كله الأمير عبد الله بقوله : "وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيتهم في ذلك يأتون أفواجا شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه فالراضي منهم يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ، وجعلوا في شكائهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا لكل صادر ووارد يجد السبيل إلى الطلب للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم

من مغارم الاقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم الى الانفاق ما قلق به وساء الظن من اجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتجف متوالية لو فرط منها في شي لانخرمت عليهم الأحوال ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة فلا حيلة الا بين صبر يؤدي الى ملامة توجب عقوبة ، أم امتناع يؤدي الى استئصال كالذي جرى .

ونسمع في هذا كله من اهل جهاتنا تهديدا وعصيانا أنكرناه لانتم به مملكة ، ولايتها مع قضاء حاجة ، ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا الا يعطونا شيئا . ويعددهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الخفر منا يقعدون بنا ، ونحن أحوج ما كنا اليه للانفاق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدمنا فيها الاقوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعونة ... وكشفت العورات ، فلم يزد الرؤساء الا توحشا ولا الرعية الا تسلطا ... وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق ، فمن اغتر منهم طالب صاحبه وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هو في سبيله ... وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا وسعدا للمرابطين مقتبلا»

ثم قدم الأمير عبد الله تفاصيل جيدة عن مسألة ابن رشيق وبين «أن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشيق واختلاف ما بينهما ، أعمل في ذلك عقله ، ودبر برأيه وقال : ما تنبغي لنا مفسدة ابن عباد من أجل ابن رشيق ، لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله . ونحن لم نأمن أمر الرومي ، والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى نرينا الأمور وجوها» (١٠) .

ويستخلص الانسان من صورة التفاصيل التي حكاها الأمير عبد الله أن المسلمين انشغلوا أثناء حصارهم لحصن لبيط بخلافاتهم وليس بالشؤون الحربية ، وأن قدرات المرابطين في القتال ضد الأماكن الحصينة كانت متدنية ، ومن المقرر أن يوسف بن تاشفين

كان مدركا لهذه الناحية وكان يعرف أن جميع المدن الأندلسية حصينة لا يمكن لقواته الاستيلاء عليها ، ولهذا تغاضى ، الآن عن وأحيانا شجع - على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم ، وتحالف بالوقت نفسه مع الفقهاء ، فلم ييخلوا بإصدار الفتاوى بخلع ملوك الطوائف ، ولابد أن تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعا حتى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين .

وشجع الفقهاء شعب الأندلس على الامتناع عن دفع الضرائب للوكلهم ، ووجد هؤلاء الملوك الآن بحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتقوية جندهم واسترضاء بعض القضاة والفقهاء ، وذل رضى رجالات المرابطين وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لآلفونسو السادس ، (١١) وهكذا تعقدت الأمور كثيرا وجاءت المحصلات جميعا لصالح المرابطين .

في الجواز الأول لم يتدخل يوسف بن تاشفين في المسائل الداخلية للأندلسيين ، لكنه في هذه المرة لم يكتف بأن أصبح يقوم بالاصغاء إلى الشكاوى بل مارس صلاحيات السيادة ، فهو الذي أمر باعتقال ابن رشيق ، وهو الذي استفتى الفقهاء ، وحين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحكم الأندلس ، ويحق للمفوض بالسلطة اتخاذ الاجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبة وغير ذلك ، وهذا ما كان .

وامضى ابن تاشفين في الأندلس أربعة أشهر ، وحين عاد نحو المغرب عاد وقد اتخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حكمه المباشر ، وسيكون هذا في الحقيقة تنفيذا للرغبة المرابطية الأساسية في التوسع بالأندلس ، لكن الذي حدث أن هذا التوسع تموه بلون الجهاد وإنصاف المظلومين وبالتحالف مع رجال الدين ، ولقد أدهشت أوضاع الأندلس وتقدمها وغناها يوسف بن تاشفين والمرابطين ، ولعله رأى أنه إن تركها لملوك الطوائف لابد وأن تسقط للأعداء ، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مع القناعات الجهادية والدينية ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وهو يصف

أحوال يوسف بن تاشفين بعد عودته إلى المغرب إثر الجـواز الثاني : « ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ فاتفق رأيهم وراي أصحابه على أن يرأسوا المعتمد يستأذنوه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو ، والكون ببعض الحصون المصاوبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأنزلهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الألفس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبعوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد أشربت - كما ذكرنا - حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وأمر عليهم رجالاً من قرابته يسمى بلجين ، وأسر إليه ما أراد ، فجاز بلجين المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال له أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه .» (١٢) .

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مع المرابطين من درس لبيط ، لكن ملوك الطوائف لم يأخذوا حذرهم ، أو لعلمهم تصوروا أن هؤلاء المرابطين سيوفرون عليهم مادة بشرية تحميهم داخل المدن ، وذلك بعد سحب الحاميات كلها أو بعضها من الحصون وإحلال المرابطين محلها ، والمهم أن خطة يوسف بن تاشفين هي التي نجحت .

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجواز بدأ يعد العدة لتصفية ملوك الطوائف ، فهو واقعياً قد اعترف به الجميع سيدياً للمغرب والأندلس ، ولكنه من حيث الواقع الشرعي لم يختلف وضعه عن

اوضاع ملوك الطوائف فالجميع كانوا من أهل السنة ، ولأهل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم وأعني بذلك الخليفة العباسي ، وبالنسبة للخلافة العباسية كان الوضع في الأندلس تعوزه من البداية الشرعية ، والآن بعد سقوط الخلافة الأموية لم يكسب ملوك الطوائف أية سمة شرعية ، فقد عدوا من الثوار المتغلبين ، لذلك توجب خلعهم ، وطبعاً لم يحاول أي من ملوك الطوائف الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد للحصول على اعتراف بحكمه وتفويض لابل أنكى من هذا سعى بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند الفونزسو السادس .

فبعد العودة من لييط دفع الأمير عبد الله لالفونزسو جزية ثلاث سنوات تقدمت ، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيوجهون إليه اللوم الشديد على فعله ، وقد أخبره الفونزسو مطمئناً له : « حتى أدرككم في ذلك طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم » : (١٣) .

وحاول الأمير عبد الله عبثاً التعاون مع الفقهاء وشراء رضاهم ، لهذا التفت نحو جنده وقلاع وحصونه ، وأراد استخدام الجند وسيلة قمع ، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي ، وأغلق على الجند الأعطيات فوثق بهم ، وهكذا قال : « وأراني جميع الجند من التآتي والانقياد والمناصحة ما حسبت أنهم يقاتلون عني البجال فسررت بهذه الحالة واطمأنت إليها ، وقلت : هؤلاء أمة لا يرون بي بديلاً لانصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد راوا جند العدو ، وإن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالة ، فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل » .

وشغله أيضاً أمر المغاربة من المرابطين الذين أسكنهم في القلاع فسعى لشراء رضاهم أيضاً ، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقاً بشعب مملكته وهكذا قال : « وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، ولذي شعاع من الزكاة والعشر عند المرابطين » وطمأن نفسه أنه مع وجود الجند على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه ، ثم حدثته نفسه ببناء على ما راه في لييط أن

يزيد من مناعة قلاعه ، فقلعة واحدة قد تعرقل مسيرة جيش كامل اسمعه يقول : « وكم عسى يستطيع الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول فصرفت وجهه اهتبالى إلى تشييد الحصون وبنيانها وإعداد ما يصلحها لحصار إن كان ، فلم أدع وجهها من وجوه الحزم إلا فعلته : من إقامة الأجباب ، وإعداد المطاحن ، وأنواع العدد من التراس والنبل والعرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعددت لكل حصن قوته لأزيد من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، مما استغني عن تحديده لاشتهاره »

وحدثته نفسه أن يوسف بن تاشفين لن يقدم على اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل « إبرامه لأمر الروم ، ولا بد عند مناظرتهم من فرج : إن غلب المرابط لم يفتنا الدخول في طاعته وإن غلب الرومي كنا منه على حذر » وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المنكب القريب حتى إذا « تغلب الرومي ، أكون على البحر متصلا بالمسلمين ، ندافع منه جهدنا ، إلى أن نضطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة أنفسنا ونتف من أموالنا » (١٤).

كان هم كل واحد من المتغلبين في الأندلس ملكه ، وقد انعدم من قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بالقلاع في هذه المرحلة أمر جديد في تاريخ الأندلس ، تشابهت به مع ما شهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاها من الاهتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ البلاد ، وعاش الحكام في قصور خاصة بهم ، لكن منذ أواخر القرن الحادي عشر أخذت كل مدينة شامية تمتلك قلعة حصينة ، فيها استقر الحكام ومنها حكموا ، وفي أيام الحروب الصليبية تم بناء المزيد من القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهكذا انتزعت القلاع من المدن دورها ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عودة إلى سياق الأحداث نجد أن إجراءات الأمير عبد الله وأمثاله لم تكن مجدية ، ذلك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة

الخلافة العباسية في بغداد ، وحصل من الخليفة على الاعتراف مع التفويض بحكم المغرب والأندلس ، وهكذا بات بالإمكان اتخاذ أي إجراء ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جدا فيه ضمان للنجاح . ففي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م دخل يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة .

لكن جاء دخوله هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحاجة الى استدعاء وأبرام عهد مع واحد من ملوك الطوائف ، لقد دخل الى بلاد هو مالکها الشرعي ، يريده الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين أفتوه جميعا «بخلعهم - أي خلع أمراء الأندلس - وقالوا ليوسف: نحن خصمناؤك عند الله ، لأن هؤلاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم ، وضيعوا غالب البلاد» (١٥) .

ولدى وصول ابن تاشفين الى الجزيرة الخضراء «وافاه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه بعادته من التعظيم ، واحتفل في التضييف والتكريم .

وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده (١٦) ذلك أن ابن تاشفين سأل المعتمد «عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك للذي كان في نفسه ... وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابا يقول فيه : أقبل إلينا ، ولا تتأخر ساعة واحدة

فرا بني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضره جميع أعدائنا ، والحاجة علينا في الوصول ، واعتذرت إليه بتوجيه رسل : أحدهما ولد حجاج والآخر ابن ما شاء الله ، فساعة وصولهما قرعها بكل ما نقل إليه ، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام ، وقال لهما : بالله ، اني غزوته كما نغزو الفونش والذي يقدر عليه فليصنع ، واتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حالة ، مضروبين ملهوفين ... فدهمني من هذا الأمر مالا مرفع فيه ولا حيلة ، ولا ظننته أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسل على المقام كتباً الى إيسانه ، فأول ما طاعت له ، والى

جميع حصون الغرب ، ... وكان من كتبه اليهم : أما بعد فقد (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (١٧) ان لم تطوعونا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) (١٨) وان خطابه لم يرد على معقل منها الا والقي بيده ، وقام أهله على اخراج قاندهم حتى تناثرت المعقل كلها كانتثار العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرعية ... حتى يلقي بيده .

فلم ندر ما نصنع ، واتسع الخرق على الراقع ، وقلت : لاطاقة لي بجميع أهل البلاد ، اذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ، فبمن نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جندس ممن كان في المعقل ... ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ، ولا ثم غيره يسند اليه فندستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى ولا من الممكن ان نوجه الى الرومي ... وان شعر بذلك أهل حضرتنا كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين» (١٩) .

وبذل الأمير عبد الله غاية جهده لنيل الرضى من ابن تاشفين فأخفق وطلب منه المثلول بين يديه وبعث اليه رسولا يقول له : «الطاعة ولا صلح الا بالخروج» وذلك مع امان «في النفس والأهل دون المال» ، وبعد مراسلات كتب يوسف اليه «ان كنت استوحشت من النزول الينا فتخير من بلادك موضعا تصير فيه ، ولتكن غير غرناطة لنرى فيها رأيتنا» (٢٠) .

ووصف الأمير عبد الله الأحوال داخل غرناطة فبين ان الجند من البربر فقد هجروا طاعته ، واعلنوا عن سرورهم بقدوم المرابطين - وبناتوا «طامعين في الزيادة على ايديهم للجنسية» ، واتفق رأيهم على الا يلقيه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة ووعده بالخروج اليه وتسليمه الأمير عبد الله والتبرؤ منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجار انه لاطاقة لهم بالحرب وغادر كثير منهم غرناطة «واما الرعية فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي ، طمعا منها في الحرية وانها لا يلزمها غير الزكاة والعشر» وتخلّى عن أمير غرناطة الجميع «حتى الخدم من النساء والخصيان»

وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة
فهجر المدينة الى الأرياف جل سكانها وعلم الأمير عبد الله بإقبال
يوسف نحوه فأسقط بيده ، وبعد تقلب لجميع أوجه الاحتمالات
رأى عبد الله أنه لا مفر أمامه من مغادرة دار ملكه والنزول الى
مخيم يوسف بن تاشفين مسلماً نفسه وملكه ، وطلب يوسف من
الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن ، ففعل ، ومالبت
أن تعرض لاهانات شخصية وأعمال تفتيش جسدية ، ثم نفي بعد
هذا كله الى المغرب الأقصى ، فأقام فترة في سبته ثم في مكناسة
الزيتون وبعدها في أغمات . (٢١) .

وقيل بعد هذا ليوسف بن تاشفين «تقت صاحب غرناطة وأخوه
منه ، وإن تركته ينصرف الى بلده ، طلبك بالثار ، وأفسد عليك ما
ترجو صلاحه ، مع شرته وحدته فهو بذلك مرسوم معروف ، فعاجل
بثقافه يصفى لك ماتوئل» ، وفوجى الأمير صاحب ماله والقى
القبض عليه وصودرت ممتلكاته ومقتنياته ، ثم «القي في
الحديد ، وأمر به الى السوس ، ولما كان طريقه على مكناسة
لقيناه ، فأخبر بهول ما قاسى وبصرنا وهو على تلك الحال قد شقي
بالكبل لعظمه ، أن يتحرك به ، فأوجب ذلك ما وسم به من
الشعر ، وان اهل مالقة رفعوا اليه حينئذ أفعالا قبيحة ، وإيادي
سيئة أسداها اليهم » ثم بعث الى السوس ليعيش هناك مذبذبا (٢٢).

وإثر تنفيذ هذه العملية عاد يوسف بن تاشفين الى سبته ليتولى
من هناك الاشراف على تصفية بقية ملوك الطوائف ، وقبل تبليغ
هذه الأعمال لابد من سؤال عن موقف ملوك الطوائف تجاه ما حدث
في غرناطة ؟

أما صاحب الحلل الموشية فقد أورد أن « المعتمد بن عباد والمتوكل
ابن الأفطس قدما عليه - يوسف - بغرناطة يهنئانه بما تهيأ له من
ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما ، وانصرفا
عنه الى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الزند على استدعاء يوسف بن
تاشفين الى الأندلس ، وقال لخليفة المتوكل بن الأفطس : والله

لابد له ان يسقينا من الكأس التي سقى عبد الله بن بلقين» (٢٣) .

لقد اورد صاحب الحل هنا بعض حقيقة ما حدث ، وأوفى منه وأكثر أمانة وقربا من الأحداث الأمير عبد الله صاحب غرناطة المعزول ، فقد ذكر أن يوسف بن تاشفين وعد المعتمد بن عباد عندما التقاه إثر جوازه الثالث ، بغرناطة «وقال له : أنا رجل مغربي وليس قد مني أخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة ، ونتوقع عليها من الرومي ، وليس غرضي أكثر من تخليصها ، فإذا صارت في يدي ، ولا يمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدو ، وضعتها عندك في يدك ؛ فتكون أعلم بما تصنع بها ، وأقعد لما يصلح المسلمين

فلم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن ، وعمل حسابا آخر أن قال في نفسه : إن لم يتهيا أخذها بـ يعود صاحبها عن الخروج اليه ، فليست مما تؤخذ من وقفه واحدة ، ستنجر الحال من أجلها ، وتشيع عليها المحلات كما صنع بلييط ، وتدخل الشتوة فيحتاج الى الانصراف ، وتبقى هذه المعازل التي طاعت للأمير اكون زعيمها ، وفي خلال ما يتلوى أمر غرناطة احتيج الي ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين، ولانخلي من بركتها» (٢٤) لكن ما ان حقق يوسف بن تاشفين نجاحاته الأولى ضد غرناطة حتى بدأ يغير سياسته تجاه ابن عباد وحليفه ابن الأفطس ، وفقد الرجلان زمام المبادرة ، لابل فقد استقلالهما ، وهكذا لم يتمكن من فعل شي لصالح ابن بلقين ، وعندما خاطب كل واحد منهما بما نصه «هذا الأمر منجر اليكم ، واليوم بي وغدا بكم ، فلم يمكنهم قراءة الكتب دونه - ابن تاشفين - وعرضوها عليه ، فحنق علي ، وكتبت الأجوبة باملائه يقولون : إنما تريد ان تلطخنا بأفعالك ، ونحن قد برأنا الله » ، ولم يكن هذا الموقف غريبا بالنسبة للأمير عبد الله ، فقد أملاه «الطاعة للمرابط والطمع ، عسى يحصل لأحد مزيد في بلاده ، ولا يمكن لأحد منهم معونتي ولا الاستفساد من أجلي فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الرومي فكيف على المسلم (٢٥) .

وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبه المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتفت اليه ، وشعر المعتمد بالتهديد «وجزع جزعا شديدا ، وخاف أن يذثنى به» فسارع بالفرار نحو قرطبة ، وحاول يوسف ثنيه ورده اليه فأخفق ووصل الى قرطبة ، وهناك حذر ابن الأفطس وقال له: « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغدا بنا.

ثم انه بعد ان ظهر للأمير نفوره ، وجه اليه يأمره بالقدوم عليه ، ويقول له : نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ، ليقول لا، فيجد السبيل ، كما فعل ، فراجع ابن عباد : إن ذلك كان وقت كنت ضيفا وتريد الغزو ، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع اموالي ، والآن انما انت لي جار مثل باديس وحفيده ، وانت أقدر مني على الشر بجنودك ، فلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى أنك تريد اخذ بلدي ، ان لاتصح لك غرناطة الا بما يضئاف اليها من الأندلس» (٢٦) .

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات الى المرابطين بالحصون فثاروا عليه (٢٧) وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه خيفة من التغرير ، ... فلما تبين للأمير خلافة وقعه عنه شاور الفقهاء في أمره ، فأشاروا عليه بغزوه» (٢٨) .

وسيرت الجيوش المرابطية ضد مدينتي قرطبة واشبيلية وسقطت قرطبة وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالمأمون ، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة ، ثم توجهت الجيوش ضد اشبيلية ، وبعد مقاومة شديدة سقطت للمرابطين يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ ٩ - ايلول ١٠٩١ م (٢٩) .

واستباححت القوات المرابطية اشبيلية «ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبثا ولا لبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا وأخذ هو قبضا باليد» وأرغم على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسليم

الحصنين اللذين كانا بأيديهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل مـاكان يملكه ، وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببـلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدو بطـنجة ، فأقام بها أياما « (٣٠) ثم أخذ إلى مكناسة الزيتون ، فبقي بها مدة ثم أخذ إلى أغـمات (٣١) حيث أمضى بقية حياته في فقر مدقع ونـل لم يرتفع حتى موته .

وفي الربع الأول من هذا القرن زار صاحب أزهار البساتين أغـمات حيث أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته مع أسرته ، فقال : « في هذا المكان الساحر الذي تقع فيه أغـمات حيث تنحدر المياه الصافية من أعالي الجبال المقاربة ، فتجعل من هذا المكان موضعا ساحرا فتشت عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربيع فلم أـثر على أثر ، ولا أتأسف على ذلك فقبره هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الأشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تـبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء لا يوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة ، ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشـقته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي » (٣٢) .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجه بعض قواته ضد المـرية ، وذلك بعد الفراغ من أمر غرناطة ، وعرف صاحبها المعتصم بن صـمادح أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معز الدولة إلى معسكر المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذا الأمير فقيها ، وقد خـل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن تقديره هذا لم يصب ، فالأمور كانت مشتتة وكان يصعب إطفاء لهبها بالوعظ ، لذلك أمر يوسف بن تاشفين بسـاعتقال هذا الأمير ساعة وصوله إليه ، وهنا تحـيل المعتصم في تخليص ولده من الأسر فافلح ، وبالنظر لانـشغال ابن تاشفين بأمر المعتمد بن عباد ، فتر

الضغط على المرية ، وكان ابن صمداح متقدما بالسن على الصحة ، ولما شعر بدنو منيته أوصى ابنه وولي عهده بقوله : « امتسك في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت ، فإن رأيت ابن عباد قد خرج ، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة ، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائر ، إذ لامطمع لك في البقاء بعده » .

وبعد سقوط اشبيلية للمرابطين وفي السنة نفسها ركب البحر فوراً وتظاهر أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تاشفين ، وفي وسط البحر ، وبعدما بعد عن أعين الأسطول المرابطي تحول نحو الجزائر وهناك التجأ إلى قلعة بني حماد « وأكرمه صاحب القلعة وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكن فاخترت تدلس لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السلطان خوفاً من الطلب ، وانخمل في ذاته (٣٣) .

وباستيلاء المرابطين على المرية باتوا سادة لمعظم ديار الأندلس ، ويبيدهم كبريات مدنها مثل : اشبيلية وقرطبة ، وغرناطة ومالقة ، والمرية ، وجيان .

وفي سنة الاستيلاء على اشبيلية استولى المرابطون أيضاً على مرسية ودانية وشاطبة (٣٤) وبعد هذا أعدو العدة للاستيلاء على بلنسية وأعمالها ، وكان الحكم في بلنسية بيد الأمير يحيى بن ذي النون ، وكانت الولاية تحت حماية مملكة قشتالة وقد عسكر فيها المغامر الأسباني السيد الكنبيطور مع فرسانه وقوات متنوعة من المرتزقة ، ومع هذا تمكنت جيوش المرابطين من الاستيلاء على بلنسية ، وقد فقد أثناء ذلك أميرها حياته ، وبموته انتهى حكم أسرة ذي النون ، أصبح طليطلة ثم بلنسية وكان ذلك سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م .

وبقي على المرابطين الآن تصفية ملك المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو الذي كان أول من استنجد بالمرابطين ، وفي أراضيه قامت معركة الزلاقة ، واحتاج المرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا

من إزالة ملك ابن الأفطس ، وذلك بوساطة إثارة الفقهاء والشعب ضده بسبب سياسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين « باظهار الطاعة والمشاركة في امر الرومي ، ويخاطب الفونش ليستعين به على ملأمة إن دهرته من المرابطين » (٣٥) .

وكان ابن الأفطس شيخا يتبع هواه ويقدمه على عقله ، وعلى عكسه كان ابنه المنصور ، وقد حذره ابنه من اتباع هواه ، ونصحه بالتخلي عن بطليوس وقال له: « هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغني عنك ما ترى من اظهار الطاعة للمرابط ، ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك ، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة لما أبقوا عليك ، كالذي رأيت صنع بغيرك ، فأما أن تصفي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ، ووضع البلد في يديه ، وتقنع بأن تكون متحريرا متخليا عن الرياسة فعاجل ذلك تجر عذره الأمان ، وإن نفرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ، يجعلك الرومي في أي بلد شئت ، وربما سوغها لك ، كما فعل بابن ذي النون في بلنسية ، وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخله ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ، فقال له أبوه ، وسفه رأيه : لا أترك موضعي وعسى أن تهيب الأقدار ضد ما تظن ، فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، واخذ لنفسه بالرأي الذي أشار به على أبيه ، فبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه » (٣٦) .

وحاك المرابطون مؤامرة للاستيلاء على بطليوس ، بأن أطلقوا من سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد ، وطلبوا منه أعداد خطة للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق الى هذه المدينة ، وهناك عمل على شراء بعض الحرس وزعماء المدينة ، « حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ، ويفتحون له الباب ، فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الأمانة التي كانت مع من داخله ، وتقبض على الشيخ وابنيه : الفضل

والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة ، وأمر... بإخراجه للقتل بعد أن رأى في نفسه هوانا عظيما ، وشدة على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعقل التي أعطاهم ، فأمر بقتله مع أبنيه: الفضل والعباس.

وطاع جميع ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم ،... ثم صار ابنه المنصور من جملة الروم حنقا لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين « (٣٧) » .

لم تبق دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الثغر الأعلى في سرقسطة ، وكانت سرقسطة محاصرة من قبل قوات الفوذسو يوم دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى ، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضيرات لمعركة الزلاقة ، بأن رفع عنها الحصار ، فهيأت أمامها الفرص للتماسك ، وخاصة بعد نصر الزلاقة ، وشكلت دولة بني هود سدا منيعا في وجه الاسبان ، وكانت أراضيها متداخلة مع ممتلكات ملوك قشتالة ، وكانت هذه الأراضي ناذية في الشمال ، لم يكن من السهل على المرابطين الوصول إليها ، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس. وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إداريا وعسكريا وأمنيا ، وذلك قبل الدخول في أية مغامرة عسكرية جديدة ، أضف إلى هذا أنهم أعلنوا دوما أنهم أزالوا ملوك الطوائف لفتح أمامهم الفرصة للجهاد ضد الأعداء ، وكان لسان حالهم دوما يقول : « إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، ونترك وراءنا الأعداء ، ممن يواسي علينا معهم » (٣٨) .

وكان العمل على إزالة ملك بني هود فيه خدمة للأعداء وضرر على المسلمين وأدرك المستعين بالله أبو جعفر أحمد بن هود هذا « فحصد بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخيف أمره ، ولم تدخل عليه بسبب ذلك داخله ، وكان مع ذلك يهادي أمير المسلمين ويكاتبه ، وقال له في مكاتبتة :

نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ، ومناعين

تطرف ، وقد قنعنا بمسالتكم ، فاقنعوا منابها ، إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر...فأجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراد...فأقام ابن هود رضي البال ، يهدد النصاري بالمسلمين ، ويهدد المسلمين بالروم ، لكونه حائلا بينهم وبين بلاد الأفرنج والأردمانيين (النورمانديين)وكان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ، ورفع الدينار» (٣٩) .

على هذا تأخر اسقاط دولة بني هود ، ولم يقدم المرابطون على اخضاعها لأنه كان لديهم في الداخل ما يكفيهم من مشاكل ، فلقد سقط جل بلاد الأندلس سياسيا وعسكريا بيد المرابطين ، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوربا التي جاشت فيها بشدة روح الحروب الصليبية ، ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب ، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن سقوط المغرب الأقصى في أيدي الأندلسيين إداريا واجتماعيا واقتصاديا وحضاريا بشكل عام ، ولهذا كله « تركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم أخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو ، وشن الغارات ، ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم ، مع الاحسان إليهم ، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدو ، بعثوا بها الى اهل الثغور » (٤٠) .

وبعد مضي عدة سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م بزيارة رابعة الى الأندلس ، وبرفقه ولده أبو طاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، الذي تولى الملك بعده ، وتجول في أقطار الأندلس وتفقد بقاعها ونظر في أحوالها فشبهها « بعقاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رياح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة » وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الأيسر بلاد الشرق » (٤١) .

وبعد هذا عاد يوسف الى المغرب ليرتب شؤون الملك من بعده ، وذلك بعدما طعن بالسن وقارب المائة عام ، وفي سنة

٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م توفي يوسف بن تاشفين ، وحين توفي كان قد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر من عقد من الزمان ، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرن من الزمان ، وبعدما طبع مع تاريخ هذا القرن في المغرب والأندلس بطابعه الشخصي ، فعلى يديه جاءت شخصية المغرب الأقصى الى الوجود الفعلي ، وبتوحيده للأندلس وضمها للمغرب الأقصى أعطى هذه البلاد هوية مازال قائمة حتى يومنا هذا ، قال عبد الواحد المراكشي يصف هذا الأمر : «و حين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ، ولم يختلف عليه شيء منها عُدَّ من جملة الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن مذكوبون اليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقممارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، وأعدل الأقاليم هواء وأصفافها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نباتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكرة مستعذبة وأصالا .

.....فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته ، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » (٤٢) .

بعدما قدم يوسف بن تاشفين الى أرض المغرب الأقصى وحد البلاد وأزال منها الفساد والاضطراب ، وسعى الى محو الظلم والاستغلال ، وهذا أيضا ما فعله في الأندلس ، فلقد كانت أنظمة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمتع بأي رضى أو قناعة شعبية ، وكان شعب المغرب والأندلس يندش الخلاص من الفرقة والذل والضرائب الثقيلة والمغارم ، أراد شعب الأندلس أن يحصل على شيء من الأمن وأن يسترد المسلم هناك كرامته ، وصحيح أن إزالة ملوك الطوائف تم بكثير من العنف ، ومرد هذا ليس لطبايع

المرابطين الاجتماعية واسويتهم العقائدية ونظرتهم الاسلامية إلى الامور فقط ، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس بعدها درجة ، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف الشديد .

اما موقف الأندلسيين بعد أمد من حكامهم من بداية الصحراء فذلك موضوع اجتماعي حضاري ، ولا بد لكل تحول اجتماعي وحضاري وسياسي من ردات فعل ، المهم أن المرابطين تمتعوا أيام يوسف بن تاشفين بقسط كبير من الشعبية في الأندلس لأنهم « أظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيش بعد الجيوش ، والخييل إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدين جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لأعهد لهم بالدعة ، ولأعلم عندهم برحاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفربه ، أو سلاح يستجده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٤٣) .

وطبعا لم يعيش يوسف بن تاشفين ليحقق هذا الحلم الكبير ، ولم تتح الفرصة للمرابطين من بعده في استئناف النشاط الاسلامي في الشمال لأسباب كان منها طبيعة أهل الأندلس ، ثم قيام حركة الموحدين التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين ، فشعب الأندلس سلم القيادة للمرابطين بعدما عانى كثيرا من ملوك الطوائف ومن العدوان الخارجي ، فاستسلم بذلك للأمن المنفذ من قبل رجال الصحراء بكل خشونة وجفاف وقسوة ، لكن والحياة تتطور والأفكار

تتبدل ، ما أن استرد الأندلسيون أنفاسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية .

لا شأن في هذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين ، ومفيد أن نختم حديثنا عنه بما وصفه به مؤرخ أندلسي غرناطي من أهل القرن الثامن ، ثم بالانطباعات التي خلفها رؤية قبره على صاحب كتاب أزهار البساتين : قال صاحب الحلل الموشية تحت عنوان « سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » : « كان رجلا فاضلا ، خيرا ، ذكيا فطنا ، حازقا بيبسا ، زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب إلى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم .

أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، في رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، ولم تزل موفورة محفوفة إلى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة إل عامر ، إلى حين دخوله إليها ، قدم أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل » (٤٤) .

وبعدما فرغ صاحب أزهار البساتين من زيارة أغمات قصد مدينة مراكش ، قال : « فدخلت في ذلك المساء نفسه لمراكش ، وهنا ذهبت لزيارة قبر آخر ، فإذا رجعت من أغمات ومررت ببساب أكنو تمر في طريق طوله ثلاثمائة متر ، تتبع في مشيك حائطا من الطين فتصل إلى باب الواحه غير متصلة ، وكلها مرقعة عليها سمة الفقر ، وتبصر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبسات متجمعة بغير فن مسح عليها بالجير الأبيض : هذا هو قبر يوسف ابن تاشفين مؤسس مراكش ، وقائد المجاهدين الملتزمين في فتح غرناطة وقرطبة .

وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهل الفضل بناء قببة على ذلك القبر ، ولكن ذلك الدفين العظيم المتعود على الهواء الطلق ، والعيشة تحت الخيام كان في كل مرة يهدم ما يبنون على قبره ، لأنه لا يقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدي سقفا من غير الأوراق المتحركة . مات وسنه يفوق المائة ، وزاد ملكه على الخمسين سنة ، وخطب باسمه على منابر افريقيا والاندلس ، أي على ألف منبر ، وتسعة منابر ، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طارق ، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان ، أي على مسافة ثلاثة أشهر طولا وعرضا ، وكان لا يكتفى إلا بأمر المسلمين « (٤٥) » .